

الديموغرافيا التاريخية من خلال موسوعة (الأنسيكلوبديا)⁽¹⁾

"Universalis"

ترجمة: رشيد يشوتي

توطئة

تشكل الديموغرافيا التاريخية اليوم حقلا حيويا في البحث العلمي، سواء لدى المؤرخين أو الديمغرافيين. ودون محاولة الإخلال بتاريخ السكان، فإن الديموغرافيا التاريخية أسهمت في إعادة تجديد هذا المجال "تاريخ السكان" بصورة تكاد تكون جذرية.

⁻¹ مجالات الديموغرافيا التاريخية⁽²⁾

تحاول الديموغرافيا التاريخية دراسة السكان من زاويتين: العدد والزمن، فهي تحلل بنية السكان حسب عدة معطيات: السن، والجنس، والحالة الزوجية، والبنية المهنية. وتعمل الديموغرافيا التاريخية، من جهتها، على قياس حالات هؤلاء السكان من حيث الخصوبة، والوفاة، وعدد الزوجات، فتسمح بذلك بتشكيل قوائم وجداول، بل تسمح إلى حد بعيد بالحكم على حادث معين واستشراف آفاق ذلك الحادث في المستقبل.

تتميز الديموغرافيا التاريخية ليس بموضوعاتها - سكان الماضي - فحسب، بل بمناهجها أيضا. وفي الواقع فهي لا تتوفر على أدوات، ووثائق، وأرقام إحصائية مهيأة بشكل حسن، وقابلة للاشتغال عليها، إلا بشكل استثنائي،

¹ - أصل هذا الموضوع مقال وارد بموسوعة Encyclopédia Universalis، المجلد 7، الصفحة 166.

² - حتى تكون لهذه الترجمة بنية متوازنة فقد ارتأينا إضافة هذا العنوان. المترجم.

لذلك تدعو الديموغرافيا التاريخية إلى ضرورة استعمال منهج الشك - على الأقل في مخيلة كل باحث في هذا المجال - في كل الإحصاءات والمعطيات التي تهتم حركات السكان، بل هي تعرض على نقدها، وأخذ الحذر منها قبل أي استعمال. لعل أهم ما يصطدم به الباحث في الديموغرافيا التاريخية هو عدم توفره على الإطلاق على إحصائيات، لذلك يكون في غالب الحالات مجبرا على الاعتماد على مصادر «خارجية» عن مجال بحثه، والتي لا تكون محضرة من أجل أهداف علمية: سجلات الخورنية⁽³⁾، كنانيش الحالة المدنية، وثائق خاصة بالعقيقة أو الزواج أو بجنازة. أما فيما يخص الباليوديموغرافيا⁽⁴⁾، فقد تم تحجيمها للانكباب على دراسة بقايا عظام الأموات وبقايا الآثار الإنسانية.

تصبو الديموغرافيا التاريخية لاستغلال مجموعة وثائق هذه الحالات استغلالا مرضيا لماضي الإنسان، وإلى اللجوء إلى تقنيات خاصة مبنية على تحليل دقيق للمعطيات، مع هوس إبعاد الكمائن العديدة التي تطرحها للمؤرخ سليم الطوية، وذلك من حيث الثغرات التي تهتم التسجيل، أو الأخطاء التي تواكب التصريح بالسن، أو الانحرافات التي تهتم الإحصائيات.

أمام هذه الوضعية، الديموغرافيا التاريخية غير قادرة على إنتاج قوائم وجداول نظيرة للديموغرافيا المعاصرة، ولا هي قادرة على إعطاء حتى معدلات عامة حول الولادات - الوفيات، لأنه يجب أولا معرفة بنية السكان وحركاتهم، والمؤرخ الديموغرافي ليست له هذه الحظوة إلا بصفة شاذة.

بيد أن هذا التحدي الذي تطرحه المصادر قد تم تجاوزه بنجاح، وأن مسعى البحث قد وجد طريقه الصائب. وفي الواقع فإن الإحصائيات المعاصرة لا تتطابق دوما مع متطلبات التحليل العلمي: فالإحصائيات المنجزة من لدن المعاهد الحكومية تقتضي أن تكون نتائجها تصب في نفس المنحى لتلك الإحصائيات التي سبقتها، أي بمعنى مطابقة مسبقا للأنماط الموجهة من لدن الحكومات. وفي المقابل فإن الباحثين في الديموغرافيا التاريخية يحضرون - وبعناد شديد - إحصائياتهم الخاصة والتي تسمح لهم ببلوغ مقاربات أكثر واقعية.

³ - الخورنية هي القرية التي يخدمها كاهن، والسجلات الخورنية Les registres paroissiaux هي السجلات الخاصة برعية تلك القرى. المترجم.

⁴ - دراسة السكان دون التوفر على وثائق مكتوبة.

ويعتقد المنظرون أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي مكنت الباحثين في الديموغرافيا التاريخية من الإسهام في تطوير مجالين، أولهما: الميكروديموغرافيا La Microdémographie المبنية على أساس الملاحظة لعدد من الأشخاص ومن العائلات. وثانيهما: التحليل الطولي L'analyse longitudinale ، وهو التحليل الذي سمح بمعالجة كل حدث بناء على الحدث الذي سبقه، وكمثال على ذلك نورد الوضعيات التالية: - قياس نسبة إعادة الزواج مقارنة مع نسبة الترميل Remariage en fonction du veuvage، ونعتقد أن هذه الصفة هي جوهر الميكروديموغرافيا، في الوقت الذي كانت فيه الديموغرافيا التقليدية تقوم على أساس التحليل العرضاني L'analyse transversale أي وصف حالات سكان ما في وقت معين.

إن النتائج المحصل عليها من خلال هذا التحليل، كما سلف توضيحه، تهم بشكل أساسي التاريخ الاجتماعي وتاريخ الأفكار والعقليات، بيد أنه مع تشكيل أبنائك المعلومات وتطوير الحساب الإلكتروني، فإن آفاقا جديدة قد فتحت، وهي قابلة لإثارة اهتمام علم البيولوجيا وعلم الجينات.

2- تطور الديموغرافيا التاريخية

من الملاحظات المثيرة للانتباه أن المؤرخين كانوا في كثير من الحالات، وإلى حدود منتصف القرن العشرين، يجهلون أو يتجاهلون أعمال الديموغرافيين، والعكس صحيح. فالأوائل، أي المؤرخون، لم يكونوا يهتمون إلا بالأعداد، ويلجأون عادة إلى السهولة التي يسمح بها النقد اللاذع. بينما اختص الديموغرافيون، بتهيء الإحصائيات الرسمية. وهذه الوضعية لم تفك خيوطها إلا بعد الحرب العالمية الثانية، لما بدأ الديموغرافيون بالاهتمام بالتاريخ والمؤرخون بالديموغرافيا. في فرنسا أسس ألفرد سوفي Alfred Sauvy "المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية" Institut national d'Etudes Démographiques (INED)، وأصدر "مجلة السكان" (La revue Population) وفتحها واسعا في وجه العلوم الاجتماعية الأخرى. ووجه لويس هنري Luis Henry أبحاثه نحو دراسة الخصوبة، وطرح التساؤل حول ما إذا وجد في

الماضي نظام خصوبة طبيعي. أما من جهة المؤرخين، فقد قام جان موفري Jean Meuvret باستطلاع واسع حول « تاريخ الأثمان L'histoire des prix » ، واستخلص أنه في منطقة جين Gien ، كان هناك تطابق نوعي بين غلاء الأسعار ونسبة الوفيات. كما أقنع موفري Meuvret أتباعه، وخاصة منهم بيير كوبيير Pierre GOUBERT بالانكباب على دراسة السجلات الخورية. وخلال سنة 1952، اقترح ب. كوبيير Pierre GOUBERT جمع كل المعطيات المتعلقة بتكوين أسرة ما، على أساس لائحة واحدة: ولادات، أعراس، وقبور...، أما المنهجية، الخاصة بهذه العملية، فقد وضعها لوي هنري L. HENRY بمساعدة م. فلوري M. FLEURY، وصدر الكتاب المرافق لها لأول مرة سنة 1956، كما صدرت أول مونوغرافية قروية (ساكنة كرولي Crulai وخورية النورماند) سنة 1958. بعد سنتين، أي سنة 1960، اعتبر ب. كوبيير Pierre GOUBERT أول من أبرز السمات الأساسية للنظام الديموغرافي القديم. وأنشأ مرسيل رينارد Marcel Reinard ، صاحب كتاب « تاريخ سكان العالم من 1700 إلى 1948 »⁽⁵⁾ "جمعية الديموغرافيا التاريخية" سنة 1963، والتي أصبحت لها فيما بعد مجلتها المتخصصة «حوليات الديموغرافيا التاريخية»⁽⁶⁾.

في ظل هذه الأوضاع تسارعت البحوث والأعمال، وتم العدول عن نشرها كاملة، خاصة وأن اختيار الخورانيات لم يكن دائما اختيارا حكيما، كما أن النتائج المحصل عليها لم تحمل أي مفاجآت، على أساس أن كل الدراسات توقفت عند الثورة الفرنسية، أي في الوقت ذاته الذي ظهرت فيه سلوكات جديدة. وفي الأخير ظهرت بعض الشكوك حول الصفات التمثيلية وحول جودة النتائج، فقد تم اتهام هذه الشعبة الفتية بكونها تعاني من أمراض الشيخوخة.

خلال السنوات السبعينية، وجدت الديموغرافيا التاريخية نفسا جديدا، بأن احتلت مكانة مرموقة في كبريات الأطاريح الجامعية للتاريخ الاجتماعي مع ر. بيريل R. BAEHREL ، وب. ديون P. Deyon ، وأ.بواترينال A. Poittrinal ، و إ. لوروا لادوري، وف. لوبران F. Lebrun ، وكاردين M. Garden ، وج.س. بيرو J.C. Perrot ، وج. كابردان G. Gabourdin ... لقد فتحت عدة ورشات في مدن روان

⁵ - L'Histoire de la population mondiale de 1700 à 1948.

⁶ - Les Annales de démographie historique.

Rouen ورمس Reims ، واكتشفت ميادين واستصلحت أخرى، وظهرت الجغرافيا التاريخية للإعمار La géographie historique du peuplement ، مع ج. دوباكويه J. DUPAQUIER ، والهجرات مع ك. شاتلان Q. CHATELAIN و ج. ب. بوسو J.P. POUSSOU .

كما قام "المعهد الوطني للدراسات الديمغرافية" (INED)، بتحقيق واسع عن طريق التحريات حول تطور الساكنة الفرنسية من 1670 إلى 1829. وأبانت النتائج الأولى التي ظهرت في نونبر 1975، عن أن ساكنة فرنسا كانت تضم على الأقل 24.600.000 نسمة منذ 1740، في إطار الحدود الحالية.

والحاصل أن مختبر الديمغرافيا التاريخية التابع لمدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية، نشر معاجم إقليمية للتاريخ الإداري والديمغرافي.

أما في الخارج، فإن المركز الرئيس للأعمال الديموغرافية كان هو مجموعة كامبردج Cambridge مع P. LASLETT, E. WRIGLEY, R. SCHFIELD ، الذي أعد تاريخا جديدا للساكنة الإنجليزية من القرن 16 إلى القرن 19. وفي كندا، شرعت شعبة الديموغرافيا التابعة لجامعة مونريال Montréal في إعادة تشكيل كل العائلات الكندية الفرنسية منذ القرن 17. وفي مدينة Salt Lake City ، عملت الجمعية النسبية⁽⁷⁾ المورمونية⁽⁸⁾ حول برنامج شامل للجينيالوجيا La Généalogie على جهاز الحاسوب. وبدون الادعاء أننا ضربنا مثلا لكل مراكز البحوث، أمكننا الإشارة إلى مركز بركتن Priceton مع أ. ج. كول A.J. COALE ، ومركز فيلاديلفيا مع أ. فان دو وال E. Van DE WALLE ، ومركز كوريتيبا Curitiba مع أ. بيلاتي - بلهانا A.PILATTI-BALHANA ، ومركز ساو باولو مع م. ل. مرشيليو M.L. MARCILIO ، ومركز لياج مع أ. هيلن E. HELIN ، ومركز جونيف مع أ. بيرينو A. PERRENOUD ، ومركز فلورانس مع ل. باتشي وس. كرسيني L. BACCI et C. CORSINI .

⁷ - الخاصة بسلسلة النسب. المترجم.

⁸ - طائفة دينية أمريكية أنشأها جوزيف سميث سنة 1830، وأباحت تعدد الزوجات في البدء. المترجم.

3- تقنيات الديموغرافيا التاريخية

إن التقنية الجوهرية في هذا الإطار هي إعادة تشكيل العائلات. وترتكز هذه التقنية على الجمع داخل جذاذة عائلة ما، لكل المعلومات المتعلقة بتاريخ اقترانها، مثلما يمكن التقاطها من خلال السجلات الكاثوليكية Les registres de catholicité⁽⁹⁾ أو كنانيش الحالة المدنية، مثل اقتران زوجين أو فسخ علاقتهما، ولادات، وفيات أطفال... إلخ. وبالمقارنة بين التواريخ أمكننا حساب سن الزوجين عند الاقتران، عند الترميل، وعند الوفاة. أنذد أمكننا استخلاص العنصر المكونة التالية:

- الفاصل الزمني بين الزواج وأول ولادة، والتي أمكننا من خلالها استخلاص تردد الإدراكات قبزوجية.⁽¹⁰⁾
- الفواصل الزمنية بين الولادات داخل العائلات المتعددة الأفراد، بالتمييز بين الفواصل الزمنية بعد وفاة الطفل المتقدم.
- نسبة الخصوبة الشرعية لكل مجموعة من الأعمال تبعا لسن المرأة عند الزواج.

نسبة الخصوبة الشرعية تبعا لمدة الزواج وللسن عند الزواج.

- النسب التام Descendance finale.

- السن عند الولادة الأخيرة... إلخ.

إن هذه التحليلات تمكن من قياس السلوكات الاجتماعية، بل وحتى بعض الظواهر البيولوجية. بالمقابل وجب أن تكون هذه التحليلات مسبقة بنقد حاد، وإذا أمكن مسبقة بتصحيح لتلك المعلومات الخاصة. فمثلا بفضل المنهجية المسماة استرداد الولادات المفقودة، أمكننا تقويم نسبة الولادات التي أفلتت من الملاحظة لكل مرحلة.

أما باقي التقنيات الأخرى المتعلقة بالديموغرافيا التاريخية فيمكننا توزيعها إلى قسمين، أولها: تصحيح المعطيات، خاصة تلك المتعلقة بالإحصاءات وتعداد السكان. وثانيها: حساب نسب الوفيات، ونسب الزوجات، ونسب الهجرات.

9 - أي الكنانيش التي تحتوي على أشياء متفقة وتعاليم الكتلكة. المترجم.

10 - أي السابقة للزواج. المترجم.

وانصببت الجهود فيما بعد، حول توحيد الأنماط وحول أوتوماتيكية هذه العمليات، مع الرجوع إلى الحساب الإلكتروني. وبالتالي فإن عدة مجموعات في باريس، مونريال، فلورانس، كامبريدج، وصالت لايك سيتي، نجحت نسبيا في إعادة التشكيل الأوتوماتيكي للعائلات. إن أهم المشاكل كانت تنحصر في اختلافات الأسماء المألوفة وفي الاختلافات الإملائية. إن كل هذه الأبحاث ساهمت في ربح كثير من الوقت لتحضير المعطيات ومعالجة مجموعات ذات الأهمية البالغة، تمحيص التحاليل، مضاعفة طرح الأسئلة، وبالأخص توسيع حقل الديموغرافيا التاريخية في اتجاه ما هو بيولوجي وما هو اجتماعي.

4- تأثير الديموغرافيا في التاريخ

منذ بداية القرن العشرين، اتجه عدة مؤرخين إلى إدخال الرياضيات في موضوعات دراساتهم، وبدون الادعاء بإمكانية جعل التاريخ علما حقا، لقد ارتبطوا بكل ما هو قابل للقياس (إنتاج، أثمان... إلخ) وبحثوا لربط الثوابت بواسطة معدلات نظيرة لتلك التي تتم في الاقتصاد السياسي. بيد أن المؤرخين لم يفلحوا البتة في تحضير نماذج Modèles، بسبب عدم التمكن من مراقبة كل المداخل، ذلك أن عدة عوامل كانت تفلت منهم بحتمية.

إن الديموغرافيا، في المقابل، أرجعت الدراسة إلى بعض الكميات المقاسة منها مثلا أعداد الرجال، الأعمار، التوزيعات، الفواصل الزمنية. بالنسبة للديموغرافيا، فالساكنة هي بمثابة مخزون مع مد داخل Flux d'entrée (الولادات) ومد خارج Flux de sortie (الوفيات). بلا شك، فالخصوبة كانت منتظمة في كل الحضارات بسبب الظاهرة الاجتماعية للزواج. بيد أن هذه الأخيرة، يمكن أن تحلل كميا وباستقلالية عن المظاهر الأخرى. وهكذا، فبمعرفة البنية عبر أعمار ساكنة ما، ومعرفة قوانين وفياتها، وقوانين زواجها وخصوبتها، أمكننا التكهن بمستقبلها بيقين رياضي، شريطة أن تكون هذه الساكنة مغلقة: أي بدون توافد هجرات عليها، وقارة: أي إن الوفيات والولادات بها ثابتة.

إن التاريخ الاجتماعي كان هو المستفيد الأول من تطور الديموغرافيا التاريخية، على اعتبار أن الطبقات الاجتماعية التي لم تكن تدرس إلا بطريقة

«انطباعية» ومجردة، دخلت الآن إلى التاريخ. واعتبارا أيضا أن كل مجموعة كانت تبلغ نسبة ما تبعها لأهميتها الرقمية Numérique، وذلك بفضل تفحص كنانيش الحالة المدنية. إن الديموغرافيا التاريخية أعطت في الأخير صورة تمثيلية للمجتمع. في المقابل كانت المصادر الأخرى للتاريخ الاجتماعي تميز النخب وبعض المجموعات النوعية. وهكذا، استتبطننا بأن الفلاحين الفرنسيين مثلا كانوا يتزوجون متأخرين، على الأقل خلال القرنين 17 و18، وأن الفاصل الزمني بين الولادات كان يتعدى عموما سنتين، وأن الولادات غير الشرعية كانت استثنائية، وأن الزواج لم يكن ينبج أكثر من 4 أو 5 أطفال في المتوسط. وشيئا فشيئا بدأت تظهر دواليب نظام ديمغرافي ذي تنظيم ذاتي *Système démographique autorégulateur*، مبني على الزواج المتأخر أكثر منه على مراقبة الولادات، وقد مكن هذا النظام الساكنة من تعويض خسائرها بعد كبريات أحداث الوفيات، ويتم البحث الآن أيضا لتوسيع طريقة إعادة تشكيل العائلات إلى كل مصادر التاريخ الاجتماعي، إن من حيث دور الضرائب، أو الأرشيات القضائية... التي وضعت للإسهام في إغناء جذاذات العائلات. إنه بهذه الدراسة «المجهرية» أمكننا انتظار تجديد كامل للتاريخ الاجتماعي.

من جهة أخرى، وبتوجيه من ب. لاسليت P. LASLETT من كامبردج، فإن الاهتمام انصب على بنية العائلات، فتمت البرهنة على أنه في أوروبا الغربية، منذ القرن 16 على الأقل، كان الطابع المهيمن هو العائلة النووية *La famille nucléaire*، بيد أن عدة استثناءات ظهرت بخاصة عند ساكنة مرتفعات أوروبا الجنوبية. ويبقى المهم الآن هو معرفة امتداد هذه الاستثناءات واستنباط المدلولات منها.

والحاصل إن الديموغرافيا التاريخية، بسماعها قياس عدة أنماط من السلوكات، ساهمت في إنعاش تاريخ العقليات وإعطائه أسسا قوية. فمثلا، بفضل الحركة الشهرية للزواج خلال الثورة الفرنسية، أمكننا معرفة هل احترم الأوفياء تلقائيا ممنوعات عيد الميلاد ومحرمات الصوم *Les interdits d'avent et de carême*. هذا فضلا عن أن النسبة الضعيفة للولادات غير الشرعية والمفاهيم قبزوجية التي سادت في فرنسا النظام القديم، وبرهنت على أن العلاقات الجنسية خارج الزواج ظلت جد استثنائية. والحاصل أن دراسة تردد التوقعات ساعد مبدئيا على القيام بتحقيق كبير حول تطورات محو الأمية.

ويبقى هناك سؤال ينتظر الجزم وهو يدور حول أصل الأحكام المسبقة عن الولادات، والتي أثرت بالغاً على المستقبل السياسي لفرنسا خلال القرنين 19 و 20. والظاهر الآن، وقد تمت إقامة الدليل على ذلك، أنه منذ عهد لويس 14، كان عدة أزواج يمارسون مالتوسية⁽¹¹⁾ متفشية وخجولة، و مترجمة بالفواصل والمسافات الإرادية للولادات في نهاية الزواج. وأن هذه الممارسات تم تعميمها خلال النصف الثاني من القرن 18. بيد أن التحول الجذري للسلوكات لم يحدث سوى خلال 1797 و 1799، في الوقت ذاته الذي خفقت فيه الحمية الثورية، وبدون تجديد حقيقي للنظام السابق للفكر وعلم الأخلاق. بأي مسلك، ترابي أو اجتماعي، تم فرض السلوكات الجديدة، ذلك هو المهم الآن الذي يجب تحديده. يتعلق الأمر بميدان جديد للقاء بين المؤرخين الديموغرافيين ومؤرخي العقليات البشرية.

إن الديمغرافيا التاريخية قطعت مرحلة حاسمة الآن بأن كونت تقنياتها ومناهجها، ومن جهة أخرى جددت معارف المجتمع الريفي التقليدي، إن في فرنسا أو في البلدان المجاورة. ومع ذلك لا تزال عدة ورشات مفتوحة أو في الانتظار، ويتعلق الأمر بالقرن 16 و 19 وعالم المدن، ومختلف المجالات الثقافية وبخاصة بأوربا الوسطى والشرقية. بالإضافة إلى ذلك، فإن عدة نتائج صعب تعليلها، وأن مشاكل جديدة طرحت، لا يمكن حلها إلا بواسطة تشارك المؤرخين الديموغرافيين مع الإحصائيين والاقتصاديين والسوسيولوجيين والبيولوجيين وأخصائي علم الوراثة.

¹¹ - نسبة إلى المذهب الاقتصادي الذي ظهر ببريطانيا مع مالتوس: 1766 Malthus - 1834، والذي كلن ينص على أن السكان يتزايدون حسب متوالية هندسية fonction géométrique 1-2-4-8-16-32-، وأن الموارد الاقتصادية لا تتزايد إلا حسب متوالية حسابية fonction arithmétique 1-2-3-4-5 -ونادى بالتالي بضرورة تحديد النسل. المترجم.